المحاضرة الأولى : تاريخية الأدب الجزائري القديم (الأستاذة كوريدات)

تمهيد :

إن تاريخ أدب الجزائر ضارب جذوره في التاريخ الإساني القديم،حيث تعاقبت عليه حضارات و ثقافات متنوعة فالأدب الجزائري القديم هو الموروث اللغوي والأدبي من المنظوم والمنثور الفنيين، الذي أنتجه الأبناء الأصليون المنتسبون لإقليم الجزائر، وذلك منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية العهد العثماني ..وقد اشتهر اسم: "الأدب الجزائري القديم" لدى كل من يبحث في الأدب المغاربي القديم عموما والجزائري القديم منه على وجه الخصوص؛ و يشهد لذلك التاريخ الحضاري والفكري الذي كان ينبض منذ فجر الفتح الإسلامي في شرق الجزائر القديمة وغربها وشمالها وجنوبها.

"أدب جزائري قديم ."وتحدد البداية التاريخية لأدب الجزائري القديم من الفتح الاسلامي لهذا الاقليم ومن الطبيعي أن نجد أدبا جزائريا عربيا في هذه الفترة المبكرة من عروبة الجزائر وإسلامها "إن الأدب العربي القديم في الجزائر موجود ما في ذلك من ريب وأن قدمه أساسا ينطلق من تاريخ تأسيس الدولة الرستمية التي يرتبط 5بعض الشعر والنثر بحكامها أنفسهم " .فبداية العهد الرستمي هي البداية الفعلية التي نرجحها حيث وصلنا منها أدب فيه من النثر والشعر ما يمكن أن نسميه أدبا من حيث الكثرة والتنوع واألدبية .أما نهاية القدم فحدها سقوط الدولة العثمانية وحلول االاحتلال الفرنسي محلها يمثل بداية مرحلة الحداثة وكل ما نتج بعد دخول االاحتلال الفرنسي فهو حديث، وكل ما أنتج قبله فهو قديم .

تاريخ الأدب الجزائري القديم

يشمل الأدب الجزائري القديم الموروث االلغوي و الأدبي من الشعر و النثر الأدبي، و يعتبر جزء من الأدب المغاربي القديم ، و قد ابتدأ من الفتح الاسلامي إلى نهاية العهد العثماني ، وينطلق الأدب العربي القديم في الجزائر من تأسيس الدولة الرستمية التي ترتبط بالشعر و النثر و قد انتهى مع سقوط الدولة العثمانية و حلول الاحتلال الفرنسي، وقد تم تحديد البداية التاريخية للأدب الجزائري القديم مع الدولة الرستمية.

قال أبو عمرو بن العلاء، فإن أدبنا برهن حسب ذهنيات أصحابه على أنه مرجعية ثقافية مميزة، لا يمكن تجاهلها، حتى وإن زهد الباحثون في الاهتمام بها. وسأحاول تتبع محطات هذا الأدب حتى يتسنى الانطلاق من قاعدة صلبة، تجلو هوية الأدب العربي في الجزائر. ولن يتم ذلك إلا برصد نماذج من أبنية نصية

متنوعة.

أولا :الدولة الرستمية

من الأدباء الجزائريين الذين برزوا في عهد الدولة الرستمية (299-160هـ؛ 676-911م). وكانت عاصمة الرستميين مدينة تيهرت، المعروفة باسم "عراق المغرب

1/ الإمام أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن، الذي ترك خطبا ورسائل ذات طابع سياسي ديني، بالإضافة إلى مقتطفات شعرية كقوله مثلا:

العلم أبقى لأهل العـــلم آثـــارا = = يريك أشخاصهم روحا وأبكـــــارا

حتى وإن مات ذو علم وذو ورع = = ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا

لله عصبة أهل العلـــم إن لهـــم = = فضلا على الناس غيابا وحضــارا

2/ أبو سهل، وله مصنفات احترقت في الفتن التي أصيبت بها تيهرت في أواخر الحكومة الرستمية.

3/أبو الفضل أحمد بن القاسم البزار.

4/ ابن الصغير الذي خلف كتابا تراكيبه أقرب من العامية منها إلى الفصحى.

5/يهودا بن قريش التاهرتي: وهو واضع أساس النحو التنظيري، وقد اهتم بالبحث في اللغات (العربية والعبرانية والبربرية والآرامية(

6/ أحمد بن فتح التاهرتي: انتقل إلى المغرب الأقصى وكان أديبا وشاعرا. ومن شعره: "ساكنات البصرة:"

ما حاز كل الحسن إلا قينة = = بصرية في حمرة وبياض

7/بكر بن حماد: ولد بتيهرت سنة 200 هـ (816م) وكان حافظا للحديث ونابغة في الشعر مما جعله يصاحب أدباء تصدروا الطليعة في ميدان القريض كأبي تمام، ودعبل الخزاعي، وعلي بن الجهم، ومسلم بن الوليد. له ديوان شعري بعنوان "الدر الوقاد"، وتزعم الحركة الزهدية في الأدب المغاربي، كما كان يتزعمها أبو العتاهية في المشرق.

ومن شعره في الزهديات:

لقد جمحت نفسي فصدت وأعرضت = = وقد مرقت نفسي، فطال مروقها

فيا أسفـــي من جنح ليـــل يقودها = = وضوء نهار لا يـــزال يسوقها

إلى مشهـــد لا بد لي من شهـــوده = = ومن جزع للموت سوف أذوقها

ستأكلها الديدان في باطـن الثـــرى = = ويذهب عنها طيبها وخلوقها

ومن شعره في رثاء ولده:

بكيت على الأحبة إذ تولوا = = ولو أني هلكت، بكوا عليا

فيا نسلي بقاؤك كان ذخرا = = وفقدك قد كوى الأكباد حيا

كفى حزنا بأني منك خلـو = = وأنك ميت وبقـــيت حيـــا

ولم أك أيسا فيئست لمـــا = = رميت الترب فوقك من يديا

خلاصة القول أن نشأة الأدب العربي في الجزائر كان مع أمراء بني رستم، وأن أول دولة جزائرية مستقلة عن الخلافة العباسية في بغداد، بعد إسلام الجزائريين،

ثانيا : فترة الأغالبة (296-184هـ؛ 296-800م).
اتخذ الأغالبة "طبنة"، الواقعة وسط إقليم الميزاب الجزائري عاصمة لحكمهم. وأصبحت "طبنة" قاعدة الجزائر الشرقية في الحركة العلمية والأدبية (...) و قد طغى الفقه على الفنون الأخرى بحيث نجد الفقهاء أكثر عددا من الأدباء، وهؤلاء أنفسهم لهم إلمام كبير بالفقه، لأن الحالة الاجتماعية كانت تدعو إلى تعاطي العلوم الدينية أكثر من سواها[8.[

ومن الأسماء البارزة على عهد الأغالبة محمد بن حسين الطبني، وأحمد وعلي وهما إخوة. كان الأول منهما "أديبا بليغا وشاعرا مُقَدَّما، قصد الديار الأندلسية ودخل قرطبة في عهد الناصر وسكنها"[9]. ومما قاله في وصف ربوع خلت من أحبابه:

وأصبحت بعد أشواق ربوعهم = = مثل السطور إذا ما رثت الكتب

فقرا يبابا، كأن لم تغن أهلـــة = = تبكي على حتفها غربانها النعب

كأن باقي مغانيها وأرسمهـــا = = منابر نصبت والطير تَخْطُب

و قد ظهر إسحاق الملشوني، نسبة إلى "ملشون"، وهي قرية من قرى بسكرة؛ وأبو الفضل عطية الطبني؛ وأبو العباس محمد البريدي المتوفى سنة 276 هـ، وهو أحد كتاب الدولة الأغلبية وأحسن ظرفائها، ومن شعره وهو في السجن:

هبنـــي أسأت، فأين العفـو والكـــرم = = قد قادني نحوك الإذعـــان والنـــدم

يا خير من مدت الأيدي إليــه أمـــــا = = ترثي لمن بكاه عندك الإذعان والندم

بالغت في الصفح، فاصْفَحْ صفح مُقتدرٍ = = إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا

ثالثا : الفترة الفاطمية
اتخذ الفاطميون (296-361هـ؛ 909-972م من "المسيلة" عاصمة لهم، حيث قصدها أرباب الثقافة من كل فوج وصوب. وقد أسسها الوالي علي بن حمدون ويمثل هذه الفترة الشاعر بن هانئ الأندلسي الذي هاجر إلى المغرب وبالذات إلى منطقة الزاب. ومن شعره في الأمير جعفر بن علي:
خليلي، ما الأيام إلا بجعفر = = وما الناس إلا جعفر، دام جعفر!

وقوله في يحي:

فلا تسألاني عن زماني الذي خلا = = فو العصر، إني قبل يحي لفي خسر![14[

رابعا: الفترة الصنهاجية547-405) ه؛ 1014-1153م(
الوالي بلقين بن زيري بن مناد، الذي كان واليا على الجزائر، قد استطاع أن يحقق للمغرب العربي ما لم يستطعه حكام المغرب قبله، وواصل المشوار بعده، ولده المنصور، وبعد المنصور، بويع ابنه باديس، فكلف عمه حماد بن بلقين بإدارة أمور المغرب الأوسط. ولم يلبث أن أصبح حمّاد صاحب النفوذ المطلق بالجزائر وغدت الدولة الحمادية أول دولة بربرية بالجزائر الإسلامية، وكانت عاصمتها القلعة. وكانت العربية هي اللسان الرسمي للدولة الحمادية مع أن رؤساءها برابرة لكون العربية لغة القرآن والدين

وقد ازدهر الأدب في فترة الحماديين من حيث الكم، وأما من جهة الكيف فظل يتسم بسمات المدرسة الشرقية، وإن كان قد ضاع نتاج هذه الفترة بسبب الاضطرابات، إلا أن هناك رجالا جزائريين عاشوا في تونس وصل إلينا شيء من آثارهم الأدبية ومن هؤلاء:

1/ ابو الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني، ومن شعره:

خليلي، إن لم تساعداني فاقصرا = = فليس يداوى بالعتــاب المتيم

تريداني مني النّسك في غير حينه = = وغصني ريان ورأسي أسحم[16[

2/ ابن رشيق القيرواني وقد خلف ما يصل إلى ثلاثين كتابا، منها "الشذوذ في اللغة"، و"العمدة"، وهذا الأخير كتاب نقدي متصل بقضايا الشعر.

ابن رشيق كان أول شاعر جزائري نظم في المجون والخمريات، ونحا نحو أبي نواس. ولابن رشيق كتاب هام عنوانه: "أنموذج الزمان في شعر القيروان". ولفظ "الزمان"

ومن شعره في رثاء القيروان:

أمست وقد لعب الزمان بأهلها = = وتقطعت بهم عرى الأقــران

فتفرقوا أيدي سبأ وتشتتـــــوا = = بعد اجتماعهم على الأوطان

3/عبد الكريم النهشلي: هذا الناقد الجزائري هو أستاذ الحسن بن رشيق القيرواني، وهو كاتب وشاعر بارع، ولد بالمحمدية التي نسميها اليوم "المسيلة"، ورحل إلى القيروان واشتهر بكتاب في النقد عنوانه: "الممتع" طرح فيه قضايا هامة كمسألة القديم والجديد، ومسألة اللفظ والمعنى، والسرقات الأدبية، والطبع والصنعة.

4/ ابن قاضي ميلة: شاعر انتهج منهج عمر بن أبي ربيعة في الغزل فاعتمد الحوار القصصي في شعره. يقول في أحد المطالع: بذيل الهوى دمعي وقلبي معن

5/ابن الربيب: كتب في النثر والشعر، ورسالته عن ابن حزم الأندلسي أكبر شاهد على تفوقه في النثر الفني. كما تدل هذه الرسالة على أن الجزائريين كانوا على بينة من أخبار الملوك والأمراء والكتاب والوزراء.

6/ يوسف أبو الفضل بن النحوي: تفنن في شعر التوسلات والابتهالات واشتهر بقصيدته المعنونة بـ: "المنفرجة". ومن حلو شعره:

لبست ثوب الرجاء، والناس قد رقدوا = = وقمت أشكو إلى مولاي ما أجد

وقلت: يا سيدي، يا منتهـــى أملـــــي = = يا من عليه بكشف الضر أعتمد

أشكـــو إليـــك أمـــورا أنت تعلمهـــا = = مالي على حملها صبر ولا جلد

وقد مددت يدي للضـــــر مشتكيـــــا = = إليك يا خير من مدت إليه يـد

7/ أبو عبد الله بن محرز بن محمد الوهراني: بذكر الوهراني. لقد شكل الوهراني ظاهرة فريدة في الأدب الجزائري على عهد الموحدين، وانتهج منهجا هزليا في أدبياته. من آثاره: "رسائل الوهران، و"جليس كل ظريف"، و"المنامات."

وعلى ذكر "المنامات"، اشتهر الوهراني بـ "منامه الكبير" الذي سلك فيه مسلك أبي العلاء المعري في "رسالة الغفران". والكتاب مطبوع في مصر، سنة 1968 بعناية وتحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش.

والذي يطالع آثار الوهراني تبدو له براعته في التهكم والتصوير الهزلي، وقد يصنف أدبه ضمن الفن الكاريكاتوري. توفي الوهراني عام 575هـ.

خامسا: الفترة الحفصية943-627) هـ؛ 1229-1526م(

1/ محمد بن حسن القلعي: كان شاعرا سخي الدمع، سخي الجيب، ويده ويد الطلبة في كتبه سواء، لا مزية له عليهم، كان جيد الشعر، يسلك فيه مسلك أبي تمام. من شعره في الزهد:

تنافس الناس في الدنيا وقد علموا = = أن المقام بها كاللمـح بالبصـــــر

أفناهـــم أولاهـــم وآخرهـــم = = لم يبق منهم سوى الأسماء والسير

2/أحمد بن أبي القاسم الخلوف: شاعر الحفصيين دون منازع. انتقلت أسرته من فاس إلى الجزائر واستوطنت قسنطينة وبها ولد سنة 829هـ/1465م.

له ديوان شعري خاص بالمديح النبوي. وله كتاب: "تحرير الميزان لتصحيح الأوزان في العروض"، وكتاب: "مواهب البديع في علم البديع."

عرف الخلوف بـ"ذي الصناعتين" لاشتهاره بجودة الشعر والنثر.

دام حكم الحفصيين 378 سنة، وقد قال أبو الحسن عندما دارت به الدائرة مع نهاية الحكم:

وكنا، اسودا والرجال تهابنا = = أتانا زمان فيه نخشى الأرانبا

في القرن السابع الهجري، بدأ الأندلسيون في الهجرة إلى الجزائر، و قد استقر في تلمسان من المهاجرين الأندلسيين، وقد ازدهر فن التوشيح الذي تعود أصوله في الجزائر إلى القرن الخامس هجري مع الشاعرين الكبيرين الأريسي وابن فكون. وأما في القرن السابع، فاشتهر شمس الدين محمد بن عفيف التلمساني المعروف بالشاب الظريف. توفي وعمره سبع وعشرون سنة.

له ديوان شعر ومقامات العشاق. ومن موشحاته:

قمر يجلو دجى الغلس = = بهر الأبصار مذ ظهرا

في أواخر القرن السابع هجري، ولد الشاعر الكبير محمد بن خميس بتلمسان سنة (650هـ، 1252م). وكان صاحب براعة في التعبير، ومتانة في السبك. ومن آخر أقواله:

لمن المنازل لا تجيب هواها = = مُحيت معالمها وصم صداها

ومن حكمه:

وإن ظلمت فلا تحقد على أحد = = إن الضغائن فاعلم تنشئ الفتنا

يأبى ثراء المال علمي وهـــل = = يجتمع الضدان علم ومـــال؟

توفي الشاعر قتيلا يوم عيد الفطر سنة 1309هـ، وذلك بعد الانقلاب الحكومي الذي أودى بصديقه الوزير أبي عبد الله بن الحكيم، ورمي الشاعر بباب الفخارين.

وعرف الأدب الجزائري القديم شعر التصوف (حب الحقيقة والفناء في طاعة الله). ومن شعراء الصوفية في الجزائر آنذاك أبو مدين بن شعيب، الذي "ولد بإشبيلية، وتعلم بفاس، ثم حج، وعند أوبته توطن بجاية. توفي قرب تلمسان سنة (594هـ) ودفن بقرية العباد في تلمسان وضريحه بها مشهور مزار

من شعراء الصوفية أيضا الشاعر أبو حمو موسى الثاني الذي عرف بشعر المولديات (الاحتفال بليلة المولد النبوي). ومن أشهر مولدياته (سنة 760هـ:(

نام الأحباب ولم تنم = = عيني بمصارعة الندم[27[

سادسا: فترة المرينيين(814-647هـ)،
برزت أسماء جديدة كالملياني وهو أديب شاعر. توفي عام (715هـ، 1315م). ومن شعره:
العز ما ضربت عليه قبابي = = والفضل ما اشتملت عليه ثيابي

وبرز محمد ابن مرزق الخطيب، وأحمد بن قنفد القسنطيني، صاحب الرحلة المشهورة: "أنس الفقير، وعز الحقير". طبعت هذه الرحلة بالرباط سنة 1956 م. وله كتاب الوفيات.

سابعا فترة الجزائر العثمانية1246-930) هـ، 1514-1830م:(
ماميز الأتراك أنهم كانو رجال حرب، وليس رجال أدب، فلم يهتموا برجال الثقافة. وسرى الضعف في مفاصل الأدب على عهدهم، فغلب عليهم طابع الجفاف. ولم يظهر أدباء حقيقيون إلا في القرن الحادي عشر، ومنهم:

1/ أحمد المقري الذي ولد في تلمسان سنة 986هـ، وخلّف ثروة أدبية منها "أزهار الرياض" و"نفح الطيب."

لكن قدرة مثلي غير خافية = = والنمل يعذر في القدر الذي حملا

2/عبد الكريم بن محمد الفكون:

عاصر أحمد المقري. ومن مؤلفات عبد الكريم، رسالة من نوع الإخوانيات وشرح على أرجوزة "الماكودي" في التصريف وجزء في تحريم الدخان. توفي الفكون سنة 1073هـ/1663م.

المراجع:

.عبد الملك مرتاض، الأدب الجزائري القديم: دراسة في الجذور، دار هومه

.محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 43، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981

رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1986، الطبعة الثانية،

.شميسة غربي، الادب الجزائري القديم، مجلة عود الند، العدد 2015/110